

نشأة كلمة صوفي ومتصوف وأصلهما

للاستاذ الجليل الشيخ مصطفى عبد الرازق

١ — كان الأقبال على الدين والزهد في الدنيا غالباً على المسلمين في صدر الإسلام ، فلم يكونوا في حاجة إلى وصف يمتاز به أهل التقى والعكوف على الطاعات والانقطاع إلى الله ، ولم يتسم أفاضلهم في الجيل الأول بتسمية سوى صحبة رسول الله ، إذ لا أفضلية فوقها ، فقبل لهم الصحابة ، ولما أدركهم أهل الجيل الثاني سمي من صحب الصحابة بالتابعين

فلما فشا الأقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده وجنح الناس إلى مخالطة المتاع الدنيوى قيل للخواص ممن لهم شدة عناية بأمر الدين الزهاد والعباد ثم ظهرت الفرق الإسلامية فادعى كل فريق أن فيهم زهاداً وعباداً ، هنا لك انفراد خواص أهل السنة المقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة ، واشتهر هذا الاسم قبل المائتين الهجرة ، فهو اسم محدث بعد عهد الصحابة والتابعين . ويقول بعض العلماء : إن هذا الاسم معروف في الملة الإسلامية من قبل ذلك ، بل يذهب بعضهم إلى أنه لفظ جاهلي عرفته العرب قبل ظهور الإسلام قال أبو نصر عبد الله بن علي السراج الطوسي المتوفى سنة ٣٧٨ هـ — ٩٨٨ م في كتاب « اللمع » في التصوف « وأما قول القائل إنه اسم محدث أحدثه البغداديون فحال ، لأنه في وقت الحسن البصري المتوفى سنة ١١٠ هـ ، كان يعرف هذا الاسم وكان الحسن قد أدرك جماعة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضى عنهم وقد روى عنه أنه قال : رأيت صوفياً في الطواف فأعطيته شيئاً فلم يأخذه وقال : معى أربعة دنانيق فيكفينى مامع . وروى عن سفيان الثوري رحمه الله (المتوفى سنة ١٦١ هـ) أنه قال : لولا

أبو هاشم الصوفي ما عرفت دقيق الرياء (وأبو هاشم الصوفي توفي سنة ١٠٥ هـ وقيل إنه أول من سمي بالصوفي) وقد ذكر في الكتاب الذي جمع أخبار مكة عن محمد بن إسحاق بن يسار «المتوفى سنة ١٥٠ هـ وعن غيره يذكر فيه حديثاً: إن قبل الأسلام قد خلت مكة في وقت من الأوقات حتى كان لا يطوف بالبيت أحد، وكان يحىء من بلد بعيد رجل صوفي فيطوف بالبيت وينصرف، فإن صح ذلك يدل على أن قبل الأسلام كان يعرف هذا الاسم، وكان ينسب إليه أهل الفضل والصلاح والله أعلم»

فاستعمال لفظ صوفي ومتصوف لم ينتشر في الأسلام إلا بعد عهد الصحابة والتابعين، وسواء أكان هذا التعبير عن الزاهد بالصوفي حدث في أثناء المائة الثانية كما هو رأى ابن خلدون (المتوفى سنة ٨٠٦ هـ سنة ١٤٠٦ م) في مقدمته، ورأى ابن تيمية (المتوفى سنة ٧٢٨ هـ - ١٣٢٧ م) فيما نقله عنه صاحب كتاب «جلاء العينين في محاسبة الأخمين» أم كان هذا التعبير معروفاً في الأسلام قبل القرن الثاني أم كان لفظاً جاهلياً على ما ذكره صاحب «اللمع» الذي يحاول أن يبرىء الصوفية من انتحال اسم مبتدع لم يعرفه الصحابة ولا التابعون

أما الأستاذ لوى ماسينيون فيقول في كتابه: «مجموع نصوص لم يسبق نشرها متعلقة بتاريخ التصوف في بلاد الأسلام» المطبوع في سنة ١٩٢٩ يباريس، عند كلامه على عبدك الصوفي المتوفى حوالى سنة ٢١٠ هـ - ٨٢٥ م: «صاحب عزلة بغدادى وهو أول من لقب بالصوفي، وكان هذا اللفظ يومئذ يدل على بعض زهاد الشيعة بالكوفة وعلى رهط من الثائرين بالأسكندرية وقد يعد في الزنادقة بسبب امتناعه عن أكل اللحم» ويريد الأستاذ أول من لقب بالصوفي في بغداد كما يؤخذ مما نقله في نفس الكتاب عن الهمداني ونصه: «ولم يكن السالكون لطريق الله في الأعصار السالفة والقرون الأول يعرفون باسم التصوف، وإنما الصوفي لفظ اشتهر في القرن الثالث

وأول من سمي ببغداد بهذا الاسم «عبدك» الصوفي وهو من كبار المشايخ

وقدمائهم ، وكان قبل بشر بن الحارث الحافى (المتوفى سنة ٢٢٧ هـ) والسرى بن المفلس السقطي «المتوفى سنة ٢٥٣»

— ٢ — أما أصل هذا التعبير فالأقاويل فيه كثيرة : فمن مرجح أنه لفظ جامد غير مشتق كالقشيري «المتوفى سنة ٤٦٥» وقد جاء في «الرسالة مع شرحها» لشيخ الإسلام زكريا الأنصارى المتوفى سنة ٩٢٦ هـ — ١٥١٩ م : «وليس يشهد لهذا الاسم من حيث العربية قياس بين ولا اشتقاق كذلك ، لأن مصدر «صفا» صفو بتأخير حرف العلة عن الفاء . والأظهر فيه أنه غير مشتق بل هو جامد كاللقب (ومن قائل إنه مشتق من (الصفاء أو الصفو) والمراد صفو قلوب أهل التصوف وانشرائح صدورهم ورضاهم بما يحريه الله عليهم ، ثم إنهم مع الله في صفاء لا يشوبه شاغل . وهم بما أطلعهم الله عليه قد صفوا من كدر الجهل قالوا : وكان في الأصل (صفوى) فاستثقل ذلك فقليل «صوفى» ومن قائل : إن اللفظ مأخوذ من «الصوف» لأن لباس الصوف كان يكثر في الزهاد ، قال صاحب «اللمع» : فلما أضعفهم إلى ظاهر اللبسة كان ذلك اسما مجملا عاما مخبرا عن جميع العلوم والأعمال والأخلاق والأحوال الشريفة الحمودة

«ألا ترى أن الله تعالى ذكر طائفة من خواص أصحاب عيسى عليه السلام فنسبهم إلى ظاهر اللبسة فقال عز وجل : «وإذ قال الحواريون» الآية . وكانوا قوما يلبسون البياض فنسبهم الله تعالى إلى ذلك ولم ينسبهم إلى نوع من العلوم والأعمال والأحوال التي كانوا بها مترسمين ، فكذلك الصوفية عندى والله أعلم نسبوا إلى ظاهر اللباس ولم ينسبوا إلى نوع من أنواع العلوم والأحوال التي هم بها مترسمون . لأن لبس الصوف كان دأب الأنبياء عليهم السلام والصديقين وشعار المساكين المتسكين»

وقيل في تسمية أصحاب عيسى عليه السلام بالحواريين . إنهم كانوا قصارين غيسلون الثياب أى يحورونها . وهو التبييض

وقال قائلون : إن الصوفية نسبة إلى الصفة التي ينسب إليها كثير من الصحابة فيقال : أهل الصفة — وأهل الصفة هم زهاد من مهاجري الصحابة فقراء غرباء كانوا سبعين ويقولون حيناً ويكثرُونَ لأمسكن لهم ولا مال ولا ولد يسكنون صفة المسجد . وهو موضع مظلل في مسجد المدينة . وكانوا ينتظرون من يتصدق عليهم بشيء يأكلونه ويلبسونه . لكن النسبة إلى الصفة لا تجيء على الصوفي . بل على الصفي

وتم أقوال ضعيفة آخر كالقول بأن الصوفي نسبة إلى الصف الأول ، لأنهم في الصف الأول يقولونهم من حيث المحاضرة والمناجاة وارتفاع الهمة مع الله تعالى والقرب منه . أو لأنهم كانوا أسرع الناس إلى الصف الأول في المساجد عند الصلاة . وكالقول بأنهم منسوبون إلى صوفة القفا ، أي ما يتدلى في نقرة القفا من شعر يرسلونه متلبداً مشعثاً كالصوف

أو منسوبون إلى صوفة بن مروان بن أد بن طابخة هكذا جاء في كتاب « جلاء العينين » والذي في القاموس وشرحه والكسان : وصوفة أبو حنيفة من مضر وهو الغوث بن مر بن أد بن طابخة بن الياس بن مضر . كانوا يخدمون الكعبة في الجاهلية ويحجزون الحاج أي يفيضون بهم ، وكانت العرب إذا حجبت وحضرت عرفة لا تدفع منها حتى يدفع منها صوفة . وسمى الغوث بصوفة لأن أمه جعلت في رأسه صوفة . وجعلته ربيطاً للكعبة يخدمها

وأرجح الأقوال وأقربها إلى العقل : مذهب القائلين بأن الصوفي نسبة إلى الصوف ، وأن المتصوف مأخوذ منه أيضاً . فيقال تصوف إذا لبس الصوف . كما يقال تقمص إذا لبس القميص . فلهذا القول وجه سائق في الاشتقاق . وهو مختار كبار العلماء من الصوفية مثل : صاحب « اللمع » وشارح « الرسالة القشيرية » .

ومن غيرهم كابن خلدون ، وابن تيمية . وجمهرة الصوفية يميلون إلى رد اسمهم إلى الصفاء . وإن لم يكن لذلك وجه ظاهر في قواعد اللغة ؟ مصطفي عبد الرزاق